فصل من رواية

" حالة شغف "

نهاد سيريس

1

كيف ظهرت وداد البريئة في صورة مع المفوض السامي

قال الشيخ ..كان ذلك في 27أيلول ...1936

كان القطار يقترب متمهلاً من محطة الشام وهو يطلق صفارته دون انقطاع.

لم تنهض وداد لتنظر من النافذة إلى الخارج كما فعل معظم الركاب .كانت تتشبث بالمقعد تجاهد لكي لا تلتقي عيناها بعيني الرجل الذي جلس في المقعد المقابل إلى جانب باب المقصورة لا يفعل شيئاً سوى النظر إليها .تمنت لو ينهض هو أيضاً فيخرج رأسه من إحدى النوافذ في الممر الضيق لقطار الشرق السريع .تردد رمشاها ثم نظرت مستطلعة .تمنت لو أنه حوّل عينيه عنها إلى السماء، إلى المباني الأولى للمدينة، إلى الأشجار التي أصبحت بطيئة في هروبها إلى الخلف أو إلى صورة برج أيفل المعلقة على خشب المقصورة فوق رأسها .ولكنه كان يتابع النظر إليها وفي عينيه شيء مخيف لطالما قصدت أمها تنبيهها منه حين كانت تنصحها بالاحتراز من الرجال .كان سيرسم ابتسامة لولا أنها انكمشت أكثر والتصقت بزاوية النافذة وعادت للنظر إلى يديها المركونتين في حجرها.

ألغت وظيفة البصر وأصبحت تتواصل مع ما كان يجري بواسطة أذنيها فقط .كان القطار يتباطأ بينما يستمر في إطلاق صفارته .من الممر كانت تسمع تعليقات الركاب ثم بعض الهتافات الحماسية، فالقطار يحمل بعض الرجال المهمين، ومن المفترض أنه سيجري لهم استقبال حافل . تمنت لو تنهض وتنظر لترى هل هذا صحيح؟ ولكن الرجل سيستمر في النظر إليها وعندها سيغرز نظراته في مؤخرتها .إذن عليها المكوث هكذا حتى يتوقف القطار، عندها سيتسنى لها الهرب .ولكن ماذا لو فرغ القطار من الركاب إلا هما؟ أصابتها رعدة وشعرت بسخونة في وجهها .كانت تعيش لحظات رعب، ذات الرعب الذي كانت تحسه حين كانت أمها تسرد عليها في ليالي البرق والرعد ماذا يمكن أن يفعله الرجال بفتاة صغيرة .الخوف كان بسبب نصائح الأم المريضة أما الآن فهو بسبب شيء حقيقي، بسبب رجل جالس أمامها ينظر اليها بطريقة واحدة في غفلة عن جميع الركاب الذين كانوا يتسلون بالنظر إلى الخارج ويطلقون الهتافات الحماسية ضد فرنسا ويحيون الوفد .أي وفد؟ ...وما هو الوفد؟ ولماذا يحتفون به؟ ومن أين هو قادم؟

انتظرت على رصيف محطة ميدان أكبس أكثر من ثلاث ساعات قبل ان يصل القطار القادم من

استنبول في طريقه إلى حلب .كانوا قد أرسلوا لوداعها عبدو السنكة، وهو ولد مجذوب بنصف عقل أطلقوا عليه أسم السنكة لأنه اجتاز أحد الأيام الحدود التركية)تقع ميدان أكبس على الحدود التركية (فطعنه أحد الجنود الاتراك بالسنكة فأصبح يعرج وصار مضحكاً أكثر، وهناك عاهة ثالثة تجعله مضحكاً جداً، ففي صف أسنانه العلوية الامامية فجوة كبيرة تجعله يصفر دون قصد حين يتكلم .وقد كانت وداد تتسلى دائماً بعبدو السنكة حين يأتي إلى بيتهم، قبل ان تموت أمها، وكان يحرص على زيارتهم لخدمتهما وتسلية وداد، تلك الفتاة اللذيذة التي تضحك وتضحك كلما تحرك أو ركض أو تكلم، فيشعر بالغبطة ويروح، مستلقياً على ظهره، يضحك محركاً يديه وساقيه إلى الأعلى .كان يلمسها في بعض الأحيان بينما هي ساهية أو مغشي عليها من الضحك فيشعر برجفة غريبة تجعله سعيداً طوال يومه ويفقد جزءاً من حيويته ويفضل بعدها الركون في الظل تحت إحدى الأشجار .هي لم تكن تفهم معنى تلك اللمسات وماذا يحصل له، وعندما رآه يوماً إمام المسجد الشيخ عبد الصبور نهره ثم لحق به ممسكاً غصن رمان رفيعاً يريد تأديبه .لم تفهم حينها وداد سبب غضب إمام المسجد ومؤذنه حتى إنها كرهت الشيخ، وعندما جلس هذا الشيخ إلى جانب فراش أمها المريضة يهمس لها وهو يتطلع إلى وداد حسبت أنه يشكوها إليها لأنها تكرهه، هكذا حسبت، وعندما أصبحت في المساء وحيدة معها أعادت الأم على مسامع الابنة تحذيراتها لها من الرجال ولكن وداد لم تكن تحسب عبدو السنكة منهم، ولم تكن تشعر بالخوف منه على الإطلاق.

ثلاث ساعات في انتظار قطار الشرق السريع قضاها عبدو السنكة وهو يبكي لأنه سيفقد وداد إلى الأبد، فهو يعلم، رغم عقله القاصر، أن أمها قد أوصت برحيل ابنتها إلى حلب بعد موتها، وقد رأى الشيخ عبد الصبور وهو يعطيها ظرفاً فيه رسالة وعليه العنوان وبعض النقود ثم أرسله معها كيلا تنتظر وحيدة، ذلك القطار الذي يتأخر في بعض المرات أكثر مما تحتمله فتاة في الثامنة عشرة . وعوضاً عن مواساتها وجعلها تنسى خوفها بإضحاكها كما اعتاد أن يفعل)كانت خائفة مما يخبئه لها سفرها بالقطار وحيدة للمرة الأولى في حياتها (كانت وداد هي التي تواسيه وتتحدث معه طوال الوقت تكذب عليه أنها سترجع سريعاً، وهي تعلم جيداً أنها لن تعود .وعندما وصل القطار يسبقه صفيره الطويل الممتد، تغير حال عبدو وصار يضحك وينط فرحاً من منظر القطار المزينة بعض عرباته بالأعلام واللافتات، مما أضفى عليه بعض البهجة طيرت النصف الباقي من عقل عبدو السنكة .والآن أصبحت هي تبكي وهو يضحك لاهياً عنها، وبصعوبة استطاعت ان تمسك به وتجعله يهدأ ثم ضغطت على يده بقوة وجرته إلى إحدى العربات غير المزينة وعند بابها أمسكت بيده بكلتا يديها تشجع نفسها على الصعود ومن ثم الابتعاد عن القرية التي ولدت فيها ولم تغادرها إلا اليوم.

صعدت إلى العربة وبحثت لها عن مكان فارغ في إحدى المقصورات .وبعد ان ركنت حقيبتها في

رف الامتعة جلست .كان عبدو واقفاً تحت النافذة يتحسس يده التي أمسكت بها قبل قليل .كان يتحسس يده وينظر إلى وداد الجالسة خلف النافذة .كانت دموعها ترسم خطين على وجنتيها، وقبل ان ينطلق القطار شعر عبدو انه أكثر الناس سعادة فراح ينط وهو يضحك ليجعل فتاته تضحك ولكنها ظلت تبكي حتى انطلق القطار، وعندما ابتعد عبدو السنكة ومبنى المحطة كثيراً مسحت دموعها وابعدت عينيها عن النافذة لتلتقي بعيني ذلك الرجل الذي قضى الوقت كله ينظر اليها دون ان يجعل باقي المسافرين في المقصورة يشتبهون به.

انتبهت إلى أصوات جديدة، اختلطت بنعومة بصفارة القطار وهتافات المسافرين وصليل الحديد على الحديد .كانت أصوات الموسيقى تقترب وتعلو، حينها شعرت بإلفة مفاجئة تجاه المحطة التي سيتوقف عندها القطار .ودون أن تنظر إلى الرجل، وبسرعة، أدارت وجهها باتجاه النافذة .كان هناك حشد هائل من البشر قدموا لاستقبال الوفد القادم بالقطار .كانوا يهتفون فرحين، يرفعون اللافتات والاعلام ويلوحون بأيديهم باتجاه العربات الأولى، بينما راحت فرقة موسيقية من الدرك تعزف المارشات العسكرية .ابتسمت دون أن تشعر، فقد أفرحها الاستقبال الحاشد.

-إنهم يستقبلون الوفد..

استدارت بشكل عفوي وأثر انفعالها مرسوم على وجهها .كان الرجل يوجه اليها الحديث وقد اقترب هو أيضاً من النافذة .في تلك اللحظة دخل المسافرون لالتقاط حقائبهم وهم يثرثرون ويضجون، وفكرت بان تنهض هي أيضاً ولكنها كانت ستحتك بالرجل ان نهضت فظلت على جلوسها، ولأول مرة نظرت في وجهه هكذا عن قرب .كانت عيناه محمرتين، ينظر في عينيها كأنه يخترقهما .كأنه يتفرج على شيء لا يملكه أحد سواها .حينها شعرت أن عليها أن تهرب، أصبح الأمر خطيراً . تململت في مقعدها ونظرت اليه برجاء أن يتركها تنهض وترحل، ولكنه، مستفيداً من كونهما أصبحا وحيدين في المقصورة، مد يده نحو وجهها وراح يتلمسه .ارتدت إلى الوراء وصارت ترتجف بينما كانت الموسيقى تعلو أكثر وشعرت بأنها إن صرخت فلن يسمعها أحد فوجدت نفسها ترجوه:

-الله يخليك .ولكن يده ظلت تجول على خديها وذقنها وانفها، لا تهدأ، توزع دفءها على كل بشرة وجهها .ولم تجد مناصاً من دفعه والنهوض فوقع على المقعد الآخر فالتقطت حقيبتها وخرجت . وعندما نظرت لتعرف إن كان سيلحقها وجدته جالساً يبتسم لها بنشوة، وخافت ان يلحق بها فراحت تركض تبحث عن وسيلة لتنزل بها إلى رصيف المحطة، وقد كان ذلك من سابع المستحيلات فقد كان الجمهور قد التصق بالقطار وسد المنافذ على الجانبين فاضطرت إلى الانتقال من عربة إلى أخرى علها تجد مخرجاً ممكناً.

كانت جموع الناس تتموج ذهاباً واياباً بينما استمرت الفرقة الموسيقية في عزفها للمارشات العسكرية،

حتى ضاق رصيف المحطة بهم، واضطر بعضهم إلى تسلق القطار وتراكضوا على سقفه ليصلوا إلى العربة التي سينزل منها الوفد ليطلوا عليه من الأعلى .وعندما أطل رئيس الوفد)وكان بالمناسبة هاشم الاتاسي (سمع هدير قوي وحاول المستقبلون الإفلات من رجال الدرك الفرنسيين للاقتراب من العربة، ولكن الأوامر كانت مشددة وكان على الدرك إبقاء الناس بعيداً عن العربة التي سينزل منها الوفد كي يتسنى للمفوض السامي المسيو دو مارتيل الاقتراب ومصافحة الوطنيين العائدين من باريس.

اقترب المفوض يرفل ببذلته البيضاء والتي علق على صدرها نياشينه العديدة وأخذ هاشم الاتاسي بالأحضان حتى إنه شمه عن عمد ليكتشف فيه رائحة خريف مدينة باريس، ثم صافح باقي أعضاء الوفد الذين كانوا ينزلون من العربة الواحد بعد الآخر وكانوا ينتظرون على الدرجات ريثما يأتي دورهم للمصافحة أو العناق، وكلما ظهر أحدهم على درجات العربة كان يستقبل بعاصفة من التصفيق وبكثير من الهتافات من الجمهور المحتشد .ورغم أنهم كانوا قد قضوا ستة أيام في هذا القطار لم يظهر عليهم التعب والارهاق من الجلوس الطويل والملل لأنهم كانوا قد جهزوا أنفسهم قبل الوصول إلى محطة حلب فحلقوا ذقونهم وغسلوا وجوههم وبدلوا ثيابهم فكان ظهورهم مؤثراً حتى إن العديد من المستقبلين بكى تأثراً .ثم توسطهم سعادة المفوض السامي لالتقاط صورة تذكارية، وقد روعي أن تكون الصورة معبرة أكثر تشرح الوسيلة التي أقلت الوفد من باريس العظيمة إلى حلب المستعمرة فوقفوا بحيث تظهر عربة القطار في الخلفية، وفي اللحظة التي برق فيها اللامع الصناعي اللازم لوضوح الصورة ظهرت وداد حاملة حقيبتها على سلم العربة فظهرت بالتالي في الصورة التذكارية التي وزعت على جميع الصحف المحلية وصحف العاصمة)ظهرت وداد ذات الوجه البريء فوق رأس دو مارتيل (وهناك من أقسم أنه رآها على الصفحة الأولى لإحدى الصحف الباريسية، كما كبّرت الصورة وعلقت على جدران مكاتب المفوض السامي والكتلة الوطنية وبعض بيوت أعضاء الوفد.

عندما شاهدها الجمهور تقف بخوف وبراءة على سلم العربة، راحت الأصوات تخفت ثم عم الصمت، ولم يعد يسمع أي صوت سوى صوت موسيقى المارشات حيث كان قائد الفرقة الشاويش صاموئيل يحرك يديه ليقودها وقد أدار رأسه باتجاه وداد، ولم يكن أعضاء الفرقة بأحسن منه، فقد كانوا هم بدورهم يعزفون وهم يتطلعون إلى تلك القروية التي نبقت من داخل عربة الوفد تحمل حقيبتها العتيقة وتضع على رأسها منديلاً لتخفي به شعرها عن عيون رجال المدينة .حتى الوزراء وأعيان المدينة الذين جاءوا لاستقبال الوفد بهتوا لظهور القروية رائعة الجمال، ولكن المفتي كان الوحيد الذي حاول غض نظره بعيداً عنها ولكنه لم يستطع، فقد حسب أنها ربما تكون جنية أو ملاكاً نزل من السماء ليحرس الوفد أثناء ترحاله فلذلك لابأس من النظر إليها .وقد استغرب سعادة

المفوض السامي ذلك الصمت فاستدار إلى الخلف، وقد لزمه بعض الوقت ليعي المسالة، وتساءل في ذهنه عن سبب وجود هذه الفتاة هنا، وبسبب نظراته تلك)ونظرات أعضاء الوفد أيضاً (زاد ارتباك وداد وصار لزاماً عليها أن تشرح الموضوع فقالت بتردد وبصوت خافت:

-لم أجد مكاناً آخر أنزل منه..

لم يفهم المفوض السامي في بادئ الأمر ما قالته له الفتاة فظل ينظر اليها كالأبله، ولكن عندما انفجر الجميع بالضحك لطرافة الموقف)الحلبيون لديهم حس للفكاهة رغم ما يشاع عنهم (اقتنع دو مارتيل ان في الأمر مصادفة فأهمل القروية التي سلبت بجمالها لب المستقبلين، ودعا الوفد للتحرك فعادت الهتافات وعلت من جديد موسيقى المارشات .وشق الدرك الفرنسيون طريقاً للوفد بين الحشود التي عادت إلى التدافع، فكل واحد يريد القاء نظرة إلى رئيس الكتلة الوطنية هاشم الاتاسي الذي كان يرأس الوفد، أو إلى سعد الله الجابري ابن المدينة والسياسي الأنيق ..وهناك من كان محتاراً إلى من ينظر فمن النادر ان يجتمع في مكان واحد وفي زمان واحد كل هذا العدد من الوطنيين ورجالات السياسة السوريين إلى جانب جنرالات الحكم الاستعماري.

خرجوا من المحطة يسبقهم المفوض السامي الذي ضاقت بدلته البيضاء على جسده البدين، يتبعهم الناس والفرقة الموسيقية التي كانت تعزف لحناً عسكرياً رشيقاً .ولم يمر وقت طويل حتى كانت وداد تقف وحيدة على الرصيف وإلى جانبها حقيبتها وقد هدأ اضطرابها .تقف وحيدة إلى جانب عربة القطار بينما القاطرة مستمرة بنفث بخارها الأبيض اللطيف .ولكنها كانت مشوشة الذهن مما حصل معها، فهي لم تكن في يوم من الأيام تحلم بمثل هذا الاستقبال في هذه المدينة الواسعة التي يسمونها حلب، والتي طالما حذرتها أمها المتوفاة من رجالها .ولكن ..لو تعلم في قبرها في ميدان أكبس كيف استقبلها الرجال في محطة القطارات، فهل كانت ستغير رأيها بهم يا ترى؟ رفعت وداد كتفيها تجيب نفسها بصمت ثم أخرجت الظرف الذي كتب عليه عنوان من يجب ان ترحل اليهم ثم التقطت حقيبتها وخرجت من المحطة .وقفت تنتظر عربة لتستقلها كما أوصاها بذلك إمام مسجد ميدان أكبس الشيخ عبد الصبور، ولكن أية عربة في هذا الوقت؟ فقد فرغت الساحة والشوارع من الناس الذين تراهم الآن من بعيد يسيرون في حشد هائل خلف العربات والسيارات التي تنقل الوفد والمستقبلين الرسميين، وهتافاتهم تختلط بإيقاع المارش العسكري .

* * * * *

دخل الخادم علينا وبيده إبريق من الشاي الحار .صمت الشيخ فجأة وكأنه يعطيه الفرصة كي يقوم بعمله بصب الشاي، ولكن خطر في بالي بأن الشيخ صمت لأنه يخادع خادمه أو ربما لأنه كان يريد أن ينشد بعض الراحة .على كل فقد صب الخادم الشاي دون قرقعة وقدم لكل منا فنجانه بخفة،

ولو كان الشيخ قد استمر في الكلام لما تأثر انتباهي بوجود شخص ثالث، بل على العكس، فقد شعرت أن صمت الشيخ دفعني إلى متابعة الخادم فيما كان يقوم به، وتملكني أيضاً الشعور بعدم الراحة الذي خبرته منذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها عند باب البيت .مع ذلك شكرت الخادم بلطف وبدأت بارتشاف الشاي الساخن فقد كنت لا أشبع منه بسبب البرد الذي تسلل إلى عظامي أثناء تجوالي في البرية بعد خروجي غير المفهوم من اللاندروفر .وما إن خرج وأغلق الباب حتى جاءني صوت الشيخ الهادئ والرخيم..

ظلت وداد واقفة خارج المحطة ساعة كاملة حتى أتتها عربة حنتور ذات غطاء أسود يجرها حصان وحيد .أعطت السائق العنوان ثم ارتاحت في المقعد الخلفي مطمئنة، فقد كان السائق رجلاً يوحي بالثقة، ثم راحت تتفرج على المدينة.

تساءلت في سرها كيف كانت المدينة تبدو لأمها قبل ثمانية عشر عاماً؟

كانت قد حدثتها عن ذلك النهار الذي هربت فيه من المدينة .هربت بالقطار المسافر إلى الشمال الذي استقلته من نفس المحطة .في ذلك اليوم من الحرب العامة التي تقاتل أثناءها الجميع وكل البلدان .كانت الحرب في نهايتها وكان الاتراك يتجمعون بالآلاف في المحطة، كل يبحث لنفسه عن مكان في القطارات التي ستغادر إلى الأراضي التركية .رجالات سياسة سابقون، ضباط أخفوا رتبهم، ولاة قدماء، كبار موظفي الدولة العثمانية ورجال كان السلطان قد خلع عليهم رتب الباشوية، قائمقامات لبلدات ونواحٍ ضائعة في خضم الأحداث العسكرية المدمرة .كانت المحطة تغص أيضاً بالنساء المترفات والاطفال الشبعانين وبمحظيات القادة العسكريين القلقات على مستقبلهن.

كل هؤلاء كانوا يفترشون أرصفة المحطة غير عابئين بأناقتهم التي طالما حرصوا عليها، كانوا أيضاً يتأبطون الصرر والحقائب التي حملوا فيها ما ادخروه أو نهبوه في الولايات التي حكموها .كانت القوافل تصل إلى المحطة باستمرار، وعندما لم يتبق لهم موطئ قدم داخل المحطة وعلى أرصفتها، أنزلوا أحمالهم عن العربات والبغال)ثم تخلوا عنها فيما بعد عن طيب خاطر لأن الروح أغلى من كل متاع (وسكنوا الساحة الخارجية للمحطة .وعندما وصل القطار هب الجميع دفعة واحدة وصار كل واحد فيهم يصرخ محاولاً شق طريقه إلى فتحات العربات ليحتل له مكاناً فيها .وقد حاول كل واحد التعريف بنفسه، ولكن من كان يهتم بالرتب أو بالألقاب؟ أما من استطاع الوصول إلى احدى العربات فقد كان يصرخ لأنه أضاع أحد مرافقيه أو إحدى زوجاته أو أحد أبنائه..

وبصعوبة شديدة استطاعت الأم ان تجد لها مكاناً في عربة لنقل المواشي .كانت في الشهر الخامس من حملها، ولم يكن حملها ظاهراً للعيان بشكل واضح، ولكنها من أجل ان تحصل على المكان أظهرت بطنها بشكل مبالغ فيه فرأفوا بحالها ثم ساعدوها على الصعود .ومن مكانها في العربة

أصبحت شاهدة على النهاية الأليمة لحكم العثمانيين لسورية.

لم يتحرك القطار إلا في الليل .كان الهاربون يستعجلون القائمين على المحطة ليتحرك القطار في أسرع وقت، فالشائعات كانت تتوارد بأسرع من البرق، وكلها تنبئ بأسوأ العواقب للمتخلفين عن الهرب، فالجيوش العدوة أصبحت على مشارف حلب .قالوا في البداية إنها أصبحت في خان السبل، ثم وفي المساء ورد خبر يؤكد بأن الانكليز احتلوا الشيخ سعيد على مشارف حلب، حينها اضطرب الخلق وبكت النساء، أما الأم فلم تكن مهتمة كثيراً، فهي عربية وكانت تريد الهرب إلى تركيا قبل ان تغلق الحدود ليكون عندها أمل في أن تجد ذلك الضابط التركي، اليوزباشي جودت، الذي كان قد زرع الجنين في بطنها قبل ان يستدعوه على عجل للالتحاق بوحدته في مكان ما على الجبهة الجنوبية.

في العربة، وبعد أن اطمأن الناس إلى ان الحظ قد حالفهم، وهاهو القطار يتحرك مقترباً بهم إلى شط الأمان)كان القطار يتحرك ببطء شديد بسبب حمولته الزائدة من البشر (اكتشف الرجال جمال الأم .أصبحت العيون تنغرز فيها، تتابع كل حركة تأتي بها .عيون الرجال والنساء معاً .عيون الرجال الشهوانية وعيون النساء المليئة حقداً وغيرة .لم يدعوها تفكر بحرية في ضابطها الجميل الذي عشقته فأعطته أغلى ما عندها .كان عليها طوال الوقت ان تخفي حرجها، وبسبب اكتظاظ العربة كان عليها ان تستمر في دفع الرجال الذين أرادوا الالتصاق بها في عتمة الليل ونفث زفيرهم الحار في وجهها . ولكن عند الفجر أنقذها الجيش من جحيم الرجال، فعندما توقف القطار في محطة ميدان أكبس للتزود بالماء والحطب، أتاهم الأمر الذي لا عودة عنه، الأمر الفظيع والقاسي بلا رحمة والذي رفعوا أصوات الاستنكار بسببه وهم يبكون أو يتباكون ثم صمتوا وأذعنوا له ..على المدنيين ان ينزلوا من القطار ويتابعوا السفر مشياً على الأقدام، حتى يتسنى للجيش نقل جرحاه ومعداته بسرعة إلى ما خلف الحدود .وبينما تابع الجميع السفر كيفما شاءوا إلى الأراضي التركية قررت الأم المكوث في ميدان أكبس.

كانت محطة القرية الشريان الرئيسي الذي ستمر من خلاله كل الجيوش المنسحبة إلى الداخل التركي .لهذا السبب ظلت على الرصيف تنتظر القطار الذي يحمل حبيبها اليوزباشي جودت .كانت كلما وصل قطار جديد من الجنوب تنهض وتقف حتى يتمكن من رؤيتها في حال كان منسحباً في ذلك القطار .مرت عليها أيام وهي على هذه الحال، ولكن دون جدوى، ففي نهاية الأمر وصل الجنود الانكليز يطاردون الأتراك المنسحبين ويقتلونهم، عندها عرفت أنها فقدت اليوزباشي إلى الأبد، وبدلاً من أن تعود إلى حلب)كان هذا الأمر مستحيلاً أيضاً (قررت استئجار بيت في القرية والبقاء فيها حتى تحين ساعة الولادة.

لكي يقبل أهل القرية العيش معهم، اخترعت الأم قصة أخرى..حياة ثانية عاشتها في خيالها .لم تقل

لهم الحقيقة التي دفنتها في سرها إلى الأبد، بل جعلتهم يعتقدون أنها كانت زوجة اليوزباشي جودت وأن أهلها قد ماتوا جميعاً في الحرب وأنها كانت مسافرة إلى تركيا للبحث عن زوجها الضابط وعن أهله ولكن مجيء الانكليز واستمرار الحرب بينهم وبين الأتراك على طول الحدود منعاها من ذلك .

كانت الأم جميلة، ناعمة لم ير أهل القرية امرأة بهذا الجمال حتى ولا التركيات المترفات اللواتي مررن بالقرية أثناء هربهن إلى استنبول .كانت براءة وجهها وتعابيرها اللذيذة ودموعها تقنع الصخر الأصم فكيف بقرويين بسطاء، والذي أقنعهم أكثر بصدقها هو طريقة حياتها بعد أن ولدت طفلة جميلة أسمتها وداد وجعلت تعمل بصمت وجلد في أي عمل متوفر من أجل إطعامها وتربيتها .ولم تشعر القرية إلا بوداد وقد أصبحت صبية جميلة تشبه أمها في رقتها وبراءتها وسحرها .حاول بعض الشباب التقرب من الأم لخطبة وداد ولكنها كانت ترفض تزويجها، حتى إنها لم تسمح لأحد من الاقتراب من بيتها اللهم إلا لذلك الشاب المجذوب عبدو السنكة بعد ان اطمأنت اليه .كانت تزرع باستمرار)ولسبب غير مفهوم (الخوف من الرجال في أعماق ابنتها خارقة الجمال، فشبت وهي تخافهم وتتحاشاهم .وعندما مرضت الأم بمرض السل الرهيب وعرفت انها ستموت قريباً صارت تحدثها عن المدينة وحياة المدينة وعن بعض معارفها في حلب .هذه المرة زرعت فيها حب المدينة .

كانت تريدها ان ترحل إلى حلب بعد وفاتها، ولهذا الأمر أخبرتها أن لها صديقة عزيزة أسمها الخوجة بهيرة، وان عليها أن ترحل اليها بعد وفاتها حاملة منها رسالة توصية، وطلبت منها أن تنسى إسمها مؤقتاً ريثما تفارق الحياة، وان عليها أن لاتذكر إسم الخوجة أمام أحد من أهل القرية، وأن لا تسألها أي سؤال يتعلق بها.

استدار سائق العربة ونظر خلسة إلى وجه الفتاة وقال في نفسه ما شاء الله وكان .كانت وداد تتفرج على طرقات المدينة بحزن مشوب بدهشة .كان كل شارع أو منعطف أو مبنى يذكرها بأمها .كانت تتصورها تسير متأبطة ذراع ضابطها التركي، أو تقطع الشارع أمام العربة بمفردها وهي تبحث في وجوه الرجال الذين تحولوا جميعاً إلى ضباط أتراك باحثة عن رجلها الذي ضيعته الحرب العامة .

ولكن لماذا رفضت أمها النزول إلى حلب؟ لماذا لم ترافقها واكتفت بوصفها لها وزرع حبها لها في قلبها؟ كل شيء غامض، ماتت أمها وتركت الف سؤال يحير وداد .من هي الخوجة بهيرة ..ولماذا أبقت صداقتهما سراً غامضاً ..ولماذا أرادتها أن ترحل اليها بعد وفاتها؟ كما قلنا، فقد كان كل شيء غامضاً في عقل فتاتنا الجميلة مثل تضاريس هذه المدينة العتيقة.

* * * * *

قال الشيخ ..كانت بديعة)وهو اسم الام (جميلة ولكن جريئة .لم تكن خجولة مثل ابنتها وداد .ربما كل ما جرى لها جعلها تربي ابنتها بطريقة جديدة، طريقة قد تغنيها عن خوض نفس التجارب التي

مرت بها الأم .كل الامهات يردن لبناتهن حياة أخرى غير التي عشنها، وخصوصاً بديعة، التي هربت من بيت أهلها في بداية الحرب .كان الرجال قد بدأوا يختفون من الشوارع ومن البيوت .محكوم على الرجل أيام الحرب ان يذهب إلى الحرب أو ان يختفي .هذه هي الحكمة أو القدر المتربص للرجال، فقد كان الجندرمة الاتراك، ذووا الحبال يتربصون بهم على ناصية الشارع .كانوا يلتقطونهم ثم يختفون بهم إلى حيث لا يعلم سوى الله ما قد حصل لهم، وهذا كان نصيب أخيها محمد علي المتزوج حديثاً، أما أبوها فقد هرب .صار يرسل لهم بعض المؤن والنقود كل مدة ولكنه هرب على كل حال .أصبح البيت بيتاً للنساء فحسب، وقانونه قانون النساء .أمها كانت شديدة وصعبة المراس . كان أغلب النساء في البيت من الجميلات ولهذا السبب راحت الأم تفرض عليهن قوانينها الصارمة، لهذا السبب هربت بديعة إلى حلب .وبما أنها غالباً ما كانت تسلي أخواتها وامرأة أخيها بان تعقد شالاً حول وسطها وترقص لهن، فقد قررت ان تستفيد من هذه الموهبة لتحصل على لقمة عيشها.

لم تكن الحياة في بلدتها مستحيلة، فقد كان مجتمع النساء يدبر حاله ويمشي أموره، أما هنا في حلب فقد اصطدمت يوم وصولها بمظاهر الجوع .كانت الشوارع في بعض الأحيان تخلو من المارة الأصحاء، وفي أحد الطرقات مرت بجثة رجل عجوز مات من الجوع .ارتعبت بديعة .خافت مما تخبئه لها هذه المدينة التي طالما سمعت بها وجعلت تأتيها في المنام .حسبت ان الأمور تجري على غير هذا المنوال ..الناس يموتون جوعاً بينما هي قادمة هاربة من قوانين أمها الصارمة .كادت ان تعود أدراجها إلى بلدتها والى دولة أمها لو لم يسألها رجل مر بها وهي لاطية إلى جانب أحد الأبواب فطلبت منه حسنة لله فأعطاها قرشاً ..سألها إن كانت تجيد شيئاً غير الشحاذة فقالت انها تعرف الغسيل والتنظيف والطبخ والرقص .نعم، تجرأت وذكرت الرقص لأنها فعلاً كانت تعرف كيف تهز خصرها وثدييها، وحسناً فعلت ذلك فأعمال الكنس والتنظيف والطبخ لا قيمة لها تلك الأيام خصوصاً وانه ليس هناك ما يطبخ ويؤكل .قال لها الرجل انهضي واتبعيني .تبعته وهي تقضم قطعة من الصمون المتيبس اشتراه لها كي تسد رمقها ريثما يتدبر أمرها ..ولكن إلى أين قادها ذلك المحسن الذي جاء في الوقت المناسب؟ ..هكذا سألت الشيخ وانا اتحرق شوقاً لمعرفة مصير بديعة، فقد بدأت القصة المشوقة تفعل فعلها فيّ حتى إن كوب الشاي كان قد برد وكنت قد نسيته منذ ان بدأ الشيخ الجليل في سرد قصته .طلب مني ان أكون صبوراً إن أنا أردت سماع الحكاية حتى النهاية فاعتذرت منه ثم تناولت كوب الشاي فعرفت حين ذاك انه بارد رغم شعاع الدفء الذي كان يشع من المدفأة .. هناك شيء أريد ان يعرفه القارئ وهو انني كنت أريد معرفة قصة الأم كي نعود إلى قصة الابنة، ولكن الشيء الممتع في طريقة سرد الشيخ للحكاية هو انه يتنقل من هذه إلى تلك دون قانون معين ودون ان ينتهي من حكاية الأولى لينتقل إلى حكاية الثانية وأنا لا أعرف السبب ولكنها طريقة ممتعة ..والآن فلنعد إلى حكاية بديعة واعتذر من القارئ لهذا التدخل من طرفي ولكنني أجد من

المناسب الدخول على الخط بين فترة وأخرى لأن وجودي مع الشيخ واستماعي إلى حكايته هما حكاية بحد ذاتها..

قال الشيخ الجليل ان ذلك الذي تسميه محسناً قد أخذها إلى إحدى أشهر المغنيات في المدينة في ذلك الزمان وهي الخوجة بهيرة وباعها إليها بتسع ليرات ذهبيات ثم رحل ولم تصادفه بديعة مرة أخرى أبدا .سألته وأنا أرتجف غضباً:

-باعها ذلك الوغد؟

-نعم باعها، ولكن لا تفهم من كلمة باعها انه قد باعها فعلاً، لقد عرف من جمال وجهها ومن إخبارها له انها تعرف الرقص انه إذا قدمها إلى الخوجة بهيرة فإنها سوف تكافئه على ذلك، وهذا شيء عادي، فبهيرة مغنية مشهورة في كل المدينة وهي تحب ان تكون محاطة بالفتيات الجميلات ثم انها كانت بحاجة إلى راقصة ترافقها في حفلاتها ولهذا السبب حصل على مكافأته.

عندما شاهدتها الخوجة بهيرة كادت تسقط على الأرض مغشياً عليها)التعبير الأدبي للشيخ وقد استخدمه عدة مرات خلال سرده للحكاية .(لقد كانت بديعة جميلة، بل فائقة الجمال .كانت قطعة نفيسة سقطت في يدي الخوجة بهيرة وهي ستعرف قيمتها بلا ريب .نحن نعلم ان النسوة اللواتي يعملن في هذه المهنة على شيء ضئيل من الجمال ..حتى ان العديدات منهن يعتبرن دميمات .كن بدينات، سمراوات، مترهلات الجسد ومسنات .ماعدا اليهوديات منهن، فقد كن مشهورات بجمالهن وكانت الفرق الموسيقية في المسارح تتصارع من أجل الحصول عليهن مثل تلك اليهودية جميلة التي أخرجت الآهات الحارة من الصدور ليس بسبب صوتها الشجي فحسب، بل بسبب جمال وجهها ولدانة جسمها وبياض بشرتها.

أخذتها الخوجة بهيرة واعتنت بها ثم صقلت حركات جسمها وعلمتها بعض الفنون الاضافية اللازمة للراقصة مثل تثبيت الساقين والجذع جيداً ومن ثم هز الخصر بسرعة مع تحريك اليدين .هذه الحركة التي لم تكن بديعة تتقنها جيداً بل كانت تتحرك باستمرار مما يعطيها شكلاً أكثر رجولية وهذا ما لا ترغب به النساء وبهيرة بالذات، فالانوثة الطاغية ضرورية للراقصة .ظلت تعطيها الدروس وتأتيها بمن يعلمها الحركات والفنون اللازمة حتى اتقنت بديعة الرقص الشرقي ورضيت عنها بهيرة.

كان لبهيرة شكل غريب وهي المغنية المخضرمة والمعروفة في كل الأوساط في المدينة .كانت تشبه الرجال في وجهها وجسدها وحركاتها .كانت أيضاً تتشبه بهم .ترتدي ثيابهم وتتجول بها ولا تنسى ان تضع في بعض الاحيان الطربوش الاحمر .كانت تحب ان يحسبها الناس رجلاً، حتى انها تهوى الصعود إلى خشبة المسرح مرتدية بنطلوناً وقميصاً للرجال، كما انها لا تنسى ان تضع ساعة في جيب البنطلون الصغير بينما تظهر سلسلتها إلى العيان .وفي أعراس النساء فان مظهرها في جو

الحريم هذا يجعل النسوة أكثر تهيجاً ومرحاً .كانت لا تأبه للتعليقات وللكلمات الداعرة التي تتفوه بها بعض النسوة، بل كانت تشارك فيها، ولعلهن كن يسمعنها مثل تلك الكلمات كي ترد عليهن بمثلها وأعظم .كانت امرأة مسترجلة ذات لسان بذيء.

وبهيرة ليس هو اسمها الحقيقي، ولا أحد يعرف ماذا كانت تسمى ولعل البعض أطلق لخياله العنان فراح يدعي بان اسمها الحقيقي كان على شاكلة حسين أو عبد الـ ...أو ابو صطيف وغيره من الاسماء التي تطلق على الرجال بسبب شبهها بهم .وقد كانت بهيرة حلبية الاصل من حي "قسطل المشط "لم يرزق والداها بغيرها، وخوفاً عليها من أولاد الحرام ادعى ابواها بأنها صبي وراحا يقصان شعرها ويشبهانها بالصبيان حتى انها كانت تعاشر الصبية على انها واحد منهم دون ان يشكوا في أمرها)هذه القصة صحيحة مئة بالمئة وقد كانت تعرف آنذاك باسم صبحي (حتى قيل انها شكلت عصابة من الصبية تحت قيادتها دون ان يعرف أحد بأنها فتاة، وكانت العصابة تغير على البيوت وعلى البساتين لسرقتها، وفي احد الأيام ذهب صبيان العصابة الى بيت احدى العاهرات لسرقتها ولكنها راحت تبكي وترجوهم ألا يسرقوها لأنها في الأصل لا تملك شيئاً للسرقة وعرضت عليهم بدل ذلك ان يناموا معها بالتناوب .أعجبتهم الفكرة وكاد صبحي)بهيرة (ان يفقد مكانته لدى مرؤوسيه من أفراد العصابة فقد خاف من الفكرة لأنها قد تكشف حقيقة جنسه أمامهم .حاول ان يثنيهم عن ذلك ولكنهم كادوا ان يتعاركوا معه فقد كانوا يستميتون من أجل ممارسة ذلك الفعل الذي سمعوا عنه دون ان يمارسوه حتى الآن، وهاهي الفرصة قد سنحت لهم صدفة وبالمجان فلماذا يمنعهم عنها صبحي ..ياله من كلب دنيء ..؟ !!وفي النهاية وافق فراح الصبية يدخلون على العاهرة الواحد تلو الآخر . كانوا يخرجون وهم يضحكون فقد كان الأمر ممتعاً .أخيراً جاء دور صبحي رئيس العصابة .خاف من أن تنكشف حقيقة جنسه فقرر ان يدخل وكان دوره آخر واحد فيهم .وعندما دخل على المرأة وجدها منفرجة الساقين، منهكة ومستسلمة فاجتاح بهيرة شعور طاغ بملامسة جسد العاهرة فاقتربت منها وراحت تلاطفها حتى انها استغربت فعل رئيس العصابة، فعوضاً عن أن يقوم بالفعل اللازم راح هذا العصابجي يلاطفها ويقبلها ويتلمس جسدها وخفاياه حتى شعرت بالمتعة، وهذا ما شعرت به أيضاً بهيرة فاكتشفت في نفسها ميلاً نحو بنات جنسها.

منذ ذلك الوقت صارت بهيرة أكثر انسجاماً مع أعضاء عصابتها .حتى ذلك الشيء الذي كانت تخاف ان يكتشفه الرفاق تحول إلى الدرجة الثانية .لقد استطاعت ان تمارس الحب مع امرأة عاهرة كالصبيان واستطاعت ان تشعر بمتعة عظيمة .حتى انها اقترحت على صبيان العصابة الذهاب إلى بيت المرأة عدة مرات، وبما انها كانت فقيرة فقد نصحت بان يدفعوا لها، وهكذا تحولت العصابة إلى زبون دائم عند المرأة وفي كل مرة كانت بهيرة تكتشف عشقها لجسد المرأة وكراهيتها لجسد الرجل، حتى ذلك اليوم الذي همست فيه المرأة إلى أحد أفراد العصابة بان رئيسهم ليس رجلاً لأنه يكتفي

بالمداعبات رغم انها كانت مداعبات محمومة .نقل الصبي ما قالته له المرأة إلى باقي رفاقه فراحوا يراقبون صبحي باستمرار فاكتشفوا بعد مدة انه لا يتبول وقوفاً مثلهم، أو أنه لا يتبول بالمرة، فقد كان صبحي يدعي انه ليس محصوراً عندما يصطف الصبيان ويخرجون أعضاءهم ويتبولون .كان يبتعد عنهم وهم يفعلون ذلك .كانت مصيبة عظيمة بالنسبة لصبيان العصابة .فضيحة بجلاجل ..فأية عصابة هذه التي رئيسها "شكر) "لا أنثى ولا ذكر(؟؟ يا للعار ..تمنوا ان يكون الأمر على غير ما يعتقدون، أو ان تكون العاهرة على خطأ، ثم كيف يمكن تصديق عاهرة والشك برئيس العصابة؟ كان عليهم ان يكتشفوا الأمر بانفسهم ..ولكن كيف؟ هل يمكن طرح السؤال على صبحي؟ هذا مستحيل، فلا يمكن طرح مثل هذه الاسئلة، انها مهينة، فماذا لو كان الموضوع كله خطأً وكانت تلك الساقطة تحاول الايقاع بينهم لتتخلص منهم؟

كانوا في رحلة إلى جسر)القرّي (على نهر قويق .كانوا قد سرقوا دجاجة من أحد البساتين القريبة وقاموا بذبحها ثم أشعلوا النار وقاموا بشيها .سبحوا في النهر وتباروا في دخول الدوامة المائية التي سبق وابتلعت العديد من الصبيان والرجال، وعندما استلقوا ليستريحوا شاهدوا صبحي)الذي اعتاد الا يشاركهم لعبهم في الماء (مستلقياً .كان نائماً .حينها استقر رأيهم .قرروا ان يمسكوا به من يديه ورجليه ويقوم أحدهم بخلع بنطلونه وقميصه .عليهم ان يحلوا المسألة اليوم مادام الوقت مناسباً، فإن كان صبحي صبياً مثلهم فسوف يضحكون ويجعلون الأمر يبدو وكأنه مزاح ..ولكي لا يستاء صبحي تعرى الصبيان .خلعوا اللباس، القطعة الأخيرة التي تستر عورتهم ثم اقتربوا من النائم، وباشارة من صاحب الفكرة أمسكوا بصبحي وراحوا يعرونه .أفاق وحاول الدفاع عن نفسه ولكنهم كانوا قد أمسكوا به جيداً وهم يضحكون .خلعوا عنه بنطلونه ثم لباسه، وعندما ظهرت عورته توقفوا عن الضحك ...لقد استنتجوا ما كانوا يخافون منه .كان صبحي فتاة.

تناسوا العار أمام المفاجأة .كيف لم يخطر ببالهم ان زعيمهم فتاة؟ تركتهم بهيرة وعادت وحيدة إلى المدينة وهي تبكي .أما هم فقد عقدت المفاجأة ألسنتهم .لقد استطاعت بهيرة ان تخدعهم طوال تلك المدة لأنها تشبه الصبيان في كل شيء، تشبههم بالوجه والسيقان والايدي .كان لها عضلات وكانت تقاتل كما يقاتل الصبيان .كانت تشبههم في كل شيء ماعدا في ذلك الشيء الذي يميزهم في أسفل البطن، وهذا الشيء كانت بهيرة تخدعهم به لأنها كانت تتحاشى التبول أمامهم .وماذا عن الثديين؟ كانوا في الخامسة عشرة، أي ان لبهيرة صدراً كسائر الفتيات اللواتي في عمرها ..هل كانت تربط صدرها؟ فصلوا بهيرة من العصابة وانتخبوا صبياً آخر ليكون زعيمهم، وكان أول قرار اتخذوه هو اغتصاب بهيرة .ولكنها كانت صاحية فتملصت منهم .هي أيضاً اتخذت قراراً خطيراً .قررت ألا تتزوج أبداً، لا لشيء إلا لأن الرجال والصبيان يمتلكون أجساداً تثير في نفسها الاشمئزاز..